

المحاضرة الثامنة: بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وفصاحته

تمهيد

إن البحث في بلاغة الرسول -ص- يعتبر شأنا كبيرا وشرفا عظيما للباحث، فالحديث النبوي هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهو المبيّن لما في القرآن الكريم من معان وأحكام، وهذا ما بينه القرآن في قوله تعالى: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"¹. وتعد بلاغته صلى الله عليه وسلم من أبرز مظاهر عظمته، وأوضح دلائل نبوته، فهو صاحب اللسان المبين، والمنطق المستقيم، والحكمة البالغة، والمعجزة الخالدة، وقد زكى الله تعالى نطقه حيث قال: "﴿وَأَنَّهُ لَتَتَزِيلُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)﴾"².

نشأته صلى الله عليه وسلم

وقد نشأ صلى الله عليه وسلم في أفصح القبائل وأصفاها نطقا، وأعذبها بيانا، فكان مولده في بني هاشم - من أوسط قريش شرفا - ورضاعته في بني سعد بن بكر، ونشأته في قريش - أم القرى - وزواجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو (الأوس والخزرج) أي الأنصار، ولهذا قال: "أوتيت جوامع الكلم"³، كما قال: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر". ولم تكن هذه الشهادات تظاهرا وافتخارا منه، وإنما كانت تقريرا لحقائق ربانية، فقد كانت هذه البلاغة والفصاحة توفيقا من الله وتوقيفا، وهبة وهبها إياه، ليتحمل الرسالة التي كانت في حد ذاتها معجزة، إذ بعثه الله في العرب وهم قوم لهم مقامات مشهورة في البيان والفصاحة، على اختلاف في اللهجات، فكان يخاطب كل قوم بلهجتهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا، وأسدّهم لفظا، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب"⁴. فكانت هذه البلاغة معجزة تحدى بها الإنس والجن. ولهذا فلا غرابة أن يمثل الحديث الشريف القمة الثانية الشامخة في البلاغة الإنسانية بعد كتاب الله عز وجل، يقول مجد الدين بن الأثير في وصف بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم: "وقد

¹ - النحل 44 .

² - سورة الشعراء 192 - 195.

³ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين ج4، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط5، 1985، ص29

⁴ - مصطفى صادق الرافعي: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان

2005، ص195.

السنة الثانية ماستر أدب قديم السداسي الثالث..... محاضرات في مادة: الإعجاز البلاغي في القرآن والحديث.أ.د إلقان عرفت -أيديك الله- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا. وأعذبهم نطقا وأسدّهم لفظا، وأبينهم لهجة، وأقربهم حجة. وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طريق الصواب. تأييدا إلهيا، ولطفا سماويا. وعناية ربانية، ورعاية روحانية، حتى لقد قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه- و سمعه يخاطب وفد بني نهد:- يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره. فقال: " أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد".¹

وقد اتفق كبار الباحثين في علوم البيان والعارفون بالبلاغة على مر العصور أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان في زمانه المثل الأعلى في فصاحة اللسان، وبلاغة القول وروعة البيان، وقد ورد في القرآن الكريم ما يزيل دهشة الحائر عن سر تلك البلاغة حيث قال جل شأنه واصفا نبيه: " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى".²

أشهر الدراسات في الحديث الشريف

غير أن ما يلاحظ في زمن التدوين أن الدراسات في ميدان البلاغة والبيان، تركزت في كتاب الله عز وجل، باعتباره أول كتاب دوّن في تاريخ اللغة العربية، وإنما نشأت حركة التدوين والتأليف بعد ذلك، وعلى ضوءه سارت وبإشرافه تأثرت فكثر البحث في بلاغته وسر إعجازه، وعلومه المختلفة، وهذا ما لم يتوفر للحديث النبوي الشريف، فلم يحلل الدارسون النصوص النبوية، ولم يتعرضوا لدراسة مزايا أسلوبها، وبيانها، بل اكتفوا بتخريج الأحاديث وتصحيحها وترتيبها وتبويبها، وذكر أسانيدنا وشرح معانيها، والتثبت في الراوي والمروي، وقلّ تناولهم للجوانب البلاغية فيها، فشحت المصنفات في هذا المضمار.

و من هذه الدراسات والتي تعد قليلة مقارنة بما كتب حول القرآن الكريم في الجانب البلاغي نذكر على سبيل المثال لا الحصر: (المجازات النبوية) للشريف الرضي، توفي سنة 465هـ، و (النهاية غي غريب الحديث والأثر) لابن الأثير، توفي سنة 606هـ، ومن الدراسات المعاصرة كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي، و كتاب (كنوز السنة) للصابوني، وكتاب (التصوير الفني في الحديث النبوي) لمحمد الصباغ.

¹ - مجد الدين ابن الأثير (أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري) النهاية في غريب الحديث والأثر ج1، تحقيق: طاهر

أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي، المكتبة الإسلامية لصاحبها: الحاج رياض الشيخ.

² - النجم 3-4.

السنة الثانية ماستر أدب قديم السداسي الثالث..... محاضرات في مادة: الإعجاز البلاغي في القرآن والحديث.أ.د. إلقان

أشهر من قيل في بلاغة الحديث النبوي الشريف

ولا مرأ في أن الحديث النبوي الشريف من أقرب الأمور إلى النفس السوية، إذا تأملته وجدته - كما يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، الذي قضى أياما من حياته في دراسة كلامه صلى الله عليه وسلم- : " قطعا من البيان، فأراه ينقلني من الحالة التي أتأمل فيها روضة تنتفس على القلب، أو منظرا يهز جماله النفس، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم، على هدوء وروح إحساس ولذة؛ ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية في نفسي، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا أنا في ذوق البيان كأنما أرى المتكلم صلى الله عليه وسلم وراء كلامه".¹

وبما أن رسول الله (ص) كان رأس الفصاحة، ومجمع البلاغة، وذروة البيان بلا منازع، فقد كان يخاطب العرب بلغاتهم على اختلاف قبائلهم بأفصح بيان وأبلغه، ويبدو أن استخدامه لهذا الفن (أي التشبيه) والفنون البلاغية الأخرى (من استعارة وكناية وسائر أضرب المجاز) المشتملة على المعاني السامية المؤطرة بإطار بلاغي هي أبرز عوامل سيادة النبي (ص) على القلوب ونجاحه في رسالته مع العرب التي كانت تخضع لسلطان اللسان أكثر من سلطان السنان، لأن الشكل وحده دون الأفكار والمعاني، قالب جامد لا روح فيه ولا حياة لذا نرى أن النبي(ص) كان يستخدم هذه الفنون البلاغية لتقريب المعاني السامية إلى أفهام السامعين .

نموذج تطبيقي عن بلاغة الحديث النبوي الشريف

وقد حفل الحديث الشريف بضروب البلاغة في أعلى مستوياتها وأجلى صورها، ومن مظاهر هذه البلاغة فنون البيان المختلفة، من تشبيه واستعارة وكناية وسائر أضرب المجاز. وللوقوف على مظاهر جمالها في كلامه صلى الله عليه وسلم نسوق هذا الحديث:

عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"².

¹ - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم ج3، دار مصر للطباعة والنشر، سعيد جودة السحار وشركاؤه، 2000، ص 6-7.

² - عبد الرحيم عبد الطهطاوي: هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري ج2، ط5، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، 1982، ص 189-190. الحديث رواه أبو موسى الأشعري: كتاب العلم، باب: فضل من علم وعلم.

السنة الثانية ماستر أدب قديم السداسي الثالث..... محاضرات في مادة: الإعجاز البلاغي في القرآن والحديث.أ.د إلقان
أما معاني الحديث ومقصوده فهو تمثيل الهدى الذي جاء به صلى الله عليه وسلم (سواء
القرآن الكريم أو السنة النبوية) بالغيث ، الذي ينزل حال حاجة الناس إليه ثم شبه الناس المبعوث إليهم
بثلاثة أصناف من الأرض. فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحیی بعد أن كان ميتا، وينبت
الكأ والزرع فتنتفع بها الناس والدواب والطيير وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس، تَلَقَّى هذا الهدى
وعمل به وبلَّغَه، أي علم وعمل وعَلَّم، فهو كالأرض النقية، شربت من الغيث المنزل فحييت بعد
موتها، وأخصبت فنفعت الناس والطيير والبهائم.

والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء
لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذلك النوع الثاني من الناس له قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام
ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل
به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذ
منهم، فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم. فهو كالأرض الجداء استقر بها الماء فنفع الله به الناس شربا
وسقيا وزرعا، لكن هذه الأرض لم تحي، فنفعت غيرها دون نفسها.

أما النوع الثالث من الأرض هي السباح التي لا تثبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا
تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس، ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فقد
ختم الله على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فلم يَلْتَفِتُوا إلى ما جاء به صلى الله عليه
وسلم من هدي وعلم، فهم كالأرض الصماء الملساء المستوية، التي يمر عليها الماء، ويلامس سطحها
الخارجي فقط فلا تنتفع، ولا يستقر بها فتتفع، إذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم.
وفي هذا الحديث أنواع من العلم منها ضرب الأمثال، ومنها فضل العلم والتعليم، وشدة الحث عليهما
وذم الإعراض عن العلم.

و الجدير بالملاحظة في كلامه صلى الله عليه وسلم هو سهولة لغة التشبيه عنده و رقتها بحيث
يمكن استخراج عناصر التشبيه في أكثر التشبيهات النبوية بدقة وافية.